

جدل الهوية في العلوم الاجتماعية

*The social scientist identification debate*يمين رحال^{1*}، راضية بوزيان²¹ جامعة محمد بن أحمد بوهرا (الجزائر)، rehailyamine3@gmail.com² جامعة الشاذلي بن جديد بالطارف (الجزائر)، bradiasociologie@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2022 / 04 / 05

تاريخ القبول: 2022 / 03 / 19

تاريخ الإستلام: 2022 / 01 / 11

ملخص:

من المدينة الفاضلة إلى المدينة الذكية كان موضوع الهوية على الدوام موضوعاً أساسياً شكل حضوراً قوياً في مختلف الأدبيات والسجلات العلمية للفلسفة والعلوم الاجتماعية والإنسانية رغم كل النقد الذي يتلقاه هذا المفهوم الموسوم بالغموض والتظليل مما جعل البعض يقترح مقارنته بمفاهيم أقل غموضاً لتوظيفه بشكل أكثر نجاعة، أو تخطيه والانطلاق من نقده قبل الخوض فيه كما ذكر ليفي ستراوس في حلقاته الخاصة بموضوع الهوية والتي نظمها سنتي 1974-1975م.

سنحاول من خلال عناصر هذا المقال أن نقرب من مفهوم الهوية من خلال عرض ومناقشة الاتجاهات الأساسية التي عالجت الموضوع في العلوم الاجتماعية والإنسانية بدءاً بالفلسفة، علم الاجتماع، علم النفس والأنثروبولوجيا.

الكلمات المفتاحية: الهوية، هوية جماعية، هوية فردية، العلوم الاجتماعية، علم النفس، علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، الثقافة، الشخصية.

Abstract:

From utopia to the smart city, the question of identity has always been an essential subject that has been a strong presence in various literatures and scientific archives of philosophy, social sciences and humanities, despite all the criticisms received by this concept marked by ambiguity and shadow, which led some to suggest to address it with less ambiguous concepts to use it more efficiently, or bypass it starting its criticism before. To put it, like Levi Strauss mentioned in his special episode on the theme of identity, organized in 1974-1975.

Through the elements of this article, we will try to approach the concept of identity by presenting and discussing the great trends that dealt with the subject in the social sciences and humanities, starting with philosophy, sociology, psychology and anthropology.

Keywords: identity, collective identity, individual identity, social sciences, psychology, sociology, anthropology, culture, culture and personality.

مقدمة

يظهر مفهوم الهوية في العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية كمفهوم أساسي ومحوري من خلال غزارة تداوله وديمومته على مدار العقود، حيث نجد الموضوع كثير التداول في الفلسفة إلى حد تسمية تيار فلسفي بفلسفة الهوية واعتباره ركنا من أركان الفلسفة وسلامة المنطق واستمرار الموضوع في التداول من برمانديس قديما إلى دوسارتو حديثا، بالإضافة إلى كونه أساسيا في العلوم الاجتماعية يعتبر محل جدل مؤسس لهوية العلوم الاجتماعية في حد ذاتها، فبين العلوم السلوكية والعلوم الاجتماعية نجد النزاع عن أيهما أحق بدراسته وتداوله؟ وفي الحقل المعرفي الواحد نجد المفهوم يثير الكثير من الجدل حول الأسس والمعايير التي من خلالها يؤسس للموضوع كموضوع لدراسة الإنسان بين فردانيته من جهة أو انتماءاته للزمر والجماعات المرجعية وعلاقتها بالجماعات الأخرى من جهة أخرى.

فكيف كان التعامل مع مفهوم الهوية في أعمال بعض الرواد المؤسسين في الفكر الاجتماعي والإنساني؟..

أولا: التأملات الفلسفية حول مفهوم الهوية:

لفهم ضرورة المنعطف الفلسفي لمعالجة موضوع الهوية ننطلق مما ذهب إليه نوربرت إلياس الذي أقر بالعجز عن فهم الموضوع خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلادي نتيجة للفصل بين ما أسماه التأملات الفلسفية حول الأنا عن تحول النحن (جيليلة المليح الواكدي، 2010، ص 146)، فكيف كانت تلك التأملات الفلسفية لمفهوم الهوية ؟

ينطلق الجدل الفلسفي من كون مفهوم الهوية مفهوما أساسيا إلى درجة ظهور تيار فلسفي تحت اسم فلسفة الهوية (جميل صليبا، 1982، ص 532) الذي نادى به الفلسفة المثالية الألمانية التي تضم أعمال العديد من الفلاسفة أبروهم شلنج Schelling القائل بوجود جوهر واحد يجمع كل من الفكر والامتداد، أي التطابق في الوجود، فالهوية إذا هي وحدة الوجود وهي ما يتماهى مع ذاته، أي ما هو هو كما ذهب إلى ذلك من قبل بارمنديس Parmenide (540-480 ق.م) مؤسس الأنطولوجيا (علم الوجود)، فالهوية موضوع فلسفي ميثافيزيقي مجدهته الفلسفة الوجودية ووضعت له قانون يعرف بقانون الهوية ويعني عدم انقسام الذات على نفسها ومن ثم اثبات الوجود الإنساني (حسن حنفي حسنين، 2012، ص 09) أي أن الوجود يشترط تطابق الهوية والشيء مع نفسه وعدم التناقض والانشطار.

بالمقابل يرى أفلاطون (427-347 ق.م) أنها خاصية نفسية لا بدنية وهو ينطلق من عدم تطابق النفس والبدن عكس ما ذهب إليه الوجوديين.

مع الفلسفة الحديثة انزاح معنى الهوية المرتبط بالوجود إلى معنى الذات أو الأنا كمصدر لمعنى الوجود، وهو مذهب الفلاسفة من رنبيه ديكرت (1596-1650م) إلى إيمانويل كانط (1724-1804م) هذا الانزياح كان معبرا عن تحول المعنى من الوجودي (الأنطولوجيا) إلى المعرفي (الابستمولوجيا) (فتحي المسكيني، 2001، ص 08) بإضافة عنصر الوعي أي فهم ما يزودنا به الشعور من خبرات وهو ما اعتبره ديكرت

التجربة الذاتية للشخص، أو الذاكرة التي تمنحنا الوعي والإحساس المتواصل عبر الزمن بوجودنا حسب ما ذهب إليه جون لوك (1632-1704م). غير أن التحول الكبير في تناول الموضوع كان مع إيمانويل كانط من خلال منحه الأخلاق طابعا كونيا مما سمح باستقلالية الفرد أخلاقيا من خلال التعامل مع الذات بوصفه غاية لا وسيلة وبالتالي توظيف الهوية الشخصية كغاية أخلاقية (كلود دوبار، 2000، ص 52).

مع ديفيد هيوم (1777-1776م) يعود السجل مجددا لمفهوم الهوية لكن هذه المرة وحدة الأنا وثباته عبر الزمن (جليلة المليح الواكدي، ص 69)، ومع فريدريش هيجل (1770-1831) وفي ظل الفلسفة المادية الجدلية تكرر مبدأ التعددية وبرزت النسبية وتراجعت اليقينيات وأزداد الإلحاح على ضرورة استخدام المنهج العلمي في مختلف الدراسات بما فيها دراسة الهوية وفق مبادئ المنهج العلمي (فاطمة الزهراء سالم، 2008، ص 65).

بعدها انتقل المفهوم من الوجود إلى حقيقة الوجود في الوقت الراهن، وكان ذلك بظهور الفلسفة الظاهرية (الفينومينولوجية) على يد إدموند هوسرل (1859-1938م) ومارتن هايدغر (1889-1976م) وجان بول سارتر (1905-1980م)، حيث عملت الظاهرية على إعادة إرجاع الإنسان إلى عالمة من خلال محاولة فهم الحياة اليومية الشيء الذي منح بمفهوم الهوية الطابع الدينامي المستمر والمتجدد خارج ذاته (جليلة المليح الواكدي، ص 87)، ليعرف مفهوم الهوية بذلك تحولا عميقا من خلال إدراك الذات عن طريق الآخر، وفي هذا الصدد يرى جان بول سارتر أن الوجود من أجل الآخر ومعه، وبهذا يكون الآخر والاختلاف معه على قدر كبير من الأهمية في إدراك الذات عن طريق إدراك الاختلاف عن الآخر، وإن كان الاتجاه بدوره ينج بالموضوع في جدال آخر، حيث رفضه الاتجاه السيميوطيقي، حيث يميز بول ريكور (1913-2005م) بين الهوية المطابقة أي الشيء نفسه؛ الجوهر الذي لا يتغير، والهوية الذاتية التي تمثل القدرة على مساءلة الذات عن كيفية الوجود، وبالتوليف بين الهويتين كوجهين لعملة واحدة حاول إيجاد حل لهذا الجدل الفلسفي حول مفهوم الهوية مقترحا مفهوم جديد أسماه الهوية السردية التي تهتم بإعادة إنتاج هوية دينامية لا تعطى دفعة واحدة بل تتشكل باستمرار مع الزمن.

من خلال كل هذا السجل الفلسفي الذي لا ينتهي يبدو أن موضوع الهوية موضوع جوهري في الفلسفة والاهتمام به لا ينفك يتزايد ويتحول الجوهر الذي لا يتغير، إلى القدرة على مساءلة الوجود وكيفيته إلى الهوية السردية التي تتشكل باستمرار.

ثانيا: الهوية في أعمال رواد السوسيولوجيا

كثيرا ما وصف علم الاجتماع في بدايته الأولى بكونه يهتم بالمجتمع والجماعة بالمقابل تهتم العلوم السلوكية بالفرد وسلوكه والدوافع والأسباب الكامنة وراءه وهو موضوع علم النفس بشكل كبير ولعل موضوع الهوية الفردية يندرج في هذا الإطار الذي تشكل علم الاجتماع تقليديا بالتضاد معه (كلود دوبار، 2000، ص 27) وهو ما من شأنه أن يبرر غياب مصطلح هوية في الأعمال السوسيولوجية لزمن ليس بالقصير.

فحتى سنوات الستينيات من القرن الماضي برز الاهتمام بموضوع الهوية في السوسيولوجيا التي واكبت التطورات الاجتماعية الموسومة بالأحداث الكبرى والمصيرية للشعوب، ففي الولايات المتحدة الأمريكية برز الاهتمام بالموضوع على خلفية تعميم فكرة المجتمع الجماهيري وصعود الحركات العرقية المناضلة من أجل الحقوق ضد التمييز العنصري على أساس العرق أو الدين أو الجنس.. وضعف اليسار وعدم نجاعة الفكر القائم على الطبقة الاجتماعية (Brubaker Rogers, Junqua Frédéri, septembre 2001.p 67). كما عرفت المرحلة تنامي دراسات سوسيولوجيا الهجرة والمهاجرين بالإضافة إلى تأثير الأقليات في السياق الأمريكي والتي أنتجت هويات هجينة أو ممزوجة على غرار الأميرنديون - هنود أمريكا- أو الكيجين -أمريكيين من أصل فرنسي- مما جعل موضوع الهوية يبرز في الدراسات حول الإثنية والقومية والهجرة والدين والنوع الاجتماعي... (كاترين ألبرت، 2010، ص 22). وكذلك الأمر في أوروبا لم يحيد بعيدا عما هو قائم في الولايات المتحدة الأمريكية ففي فرنسا مثلاً كانت سنوات السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين سنوات البروز القوي لموضوع الهوية أين طرحت التساؤلات حول جدوى الحداثة نتيجة للأزمات الاقتصادية المعقدة بامتداداتها الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، والتي نتج عنها ارتفاع في معدلات البطالة والفقر وتراجع دور الأسرة وتفكك الروابط الاجتماعية وتنامي التهديد بالقضاء والتميش، وما نتج عنه من تساؤلات متجددة حول تعريف الفرد وانتماءاته وهو ما يعني التساؤل بوضوح حول الهوية (كلود دوبار، 2000، ص 11)، فهل يعني ذلك أن علماء الاجتماع الأوائل لم يتطرقوا لموضوع الهوية ؟ نفترض للإجابة على هذا التساؤل أن الموضوع طرح بشكل أو بآخر ونحاول من خلال عرض أعمال بعض الرواد في علم الاجتماع ان نستنبط ما تضمنت من أفكار ذات صلة بهذا الموضوع وأشكال مقاربتهم له.

ونحن لا نسعى في هذا المقام أن نعرض التراث السوسيولوجي برمته ومقاربتة لموضوع الهوية بقدر ما نحاول ان نعرض بعض المعالم التي بدت لنا بارزة في مقاربتة لموضوع الهوية ولو من وراء زخم كبير من الأعمال تحت مسميات عدة زاخرة بدراسة الظواهر الاجتماعية باستثناء الهوية التي نسجل غياب المصطلح في الأعمال الأولى المؤسسة لعلم الاجتماع وإن كان ذلك لا ينكر وجود أفكار ضمنية تحليلها يمكن أن يحيلنا على الموضوع بشكل مباشر يؤسس لنظرية الهوية (هارلمبس وهولبورن، 2010، ص 13).

1. الهوية في أعمال إيميل دوركهايم:

لا تشير أعمال إيميل دوركهايم Emile Durkheim (1858-1917م) لمصطلح الهوية، وإنما كان جل تركيزه حول مفهوم "الوعي الجمعي" أو "الوجدان الجمعي" أو المشترك الذي يمثل التمثلات الجماعية والقيم والمثل العليا المشتركة بين أفراد المجتمع، والتي بموجبها يتحدد الإطار الذي ينتظم فيه السلوك العام لأفراد مجتمع ما، وهو ما يقابل "النماذج الثقافية" و"الشخصية القاعدية" في الأنثروبولوجيا الثقافية عند الأمريكيين والتي تعتبر نظرية ثقافية تدفعنا للبحث في أفكار دوركهايم لاستخلاص ما يشير إلى موضوع الهوية.

تحت تأثير أفكار علماء ألمان أمثال شافيل ورينوفيه اختزل دوركهايم الاجتماعي في الأشكال الجماعية حسب تعبير نوربرت إلياس (كلود دوبار، 2000، ص 33). ويأتي ذلك من خلال الانطلاق من مجموعة من

المبادئ في مقدمتها أن الكل لا يساوي مجموع أجزائه بمنطق الفيزياء والرياضيات، وبالتالي حسب نفس المنطق دائما فصفاة الوعي الجماعي تختلف عن صفات الوعي الفردي، فالفردي ينبثق من الجماعي (أنطوني غدنز، د س، ص 121) ويبقى تابع له، وهذا هو جوهر النظرية الاجتماعية عند دوركهايم، فوجود الجماعة سابق على وجود الفرد ومتفوق عليه وبالتالي هويته تتكون من إملاءاتها لتمتعها بصفات نوعية تجعله سباق على الفرد وتمكنه من الاستمرار بعد زواله (إميل دوركهايم، 1982، ص 98) فالفرد مطبوع بصفات مجتمعه الثقافية والاجتماعية عن طريق التنشئة الاجتماعية، وكان هذا الرأي في الغالب هو رأي السوسيولوجيا الفرنسية المعاصرة فطبعت الهوية عندهم بطابع الفئة الاجتماعية التي ينتمون إليها إثنية أو عائلية أو مهنية أو أيا كانت.

يصف دوركهايم المجتمعات وفقا لجملة من الخصائص تميز بين المجتمعات البسيطة والأخرى المعقدة ووفقا لقوة الوعي الجمعي أو ضعفه تبرز الهوية الاجتماعية على مقابل الهوية الفردية وهما شكلين من الهوية يمكن رسم معالمهما من خلال الفوارق الجوهرية بين نمطي المجتمع المذكورين.

1.1. الهوية الاجتماعية:

يرى دوركهايم أنه في المجتمعات البسيطة التي تتكون من تجمعات أولية ذات طبيعة شبه عائلية يسود التعاون الآلي الذي يتجه من الفرد إلى الجماعة (إميل دوركهايم، 1982، ص 126) وهذا نتيجة لحالة وجدانية مشتركة تجعل الفرد يلتزم بمجموع القواعد الأخلاقية العامة التي تعتبر قيمة أساسية في إطار وحدة ثقافية شاملة لأفراد المجتمع تعمل على الحد من الاختلاف وتفرض نوع من التشابه بفعل الامتثال للوعي الجمعي القوي، يقول دوركهايم في هذا الصدد: "كلما كانت المجتمعات أقرب إلى البداوة، كان التشابه بين الأفراد الذين يؤلفونه أعظم" (إميل دوركهايم، 1982، ص 156)، وهي هذا طرح لوجود هوية اجتماعية مشتركة في سماتها عند أفراد المجتمعات التقليدية تطبع بطابع الاجتماعي، إنها الهوية المشتركة التي يمكن من خلالها للفرد أو الجماعة اكتساب خصائص مجتمعه ومنه إمكانية تعريفهم وفق أطر ذاك المجتمع (أنطوني غدنز، 2005، ص 90).

2.1. الهوية الفردية:

الهوية الفردية أو الذاتية أو الشخصية، كما يرى أنتوني غدنز: "تشير إلى عملية التنمية الذاتية التي نرسم من خلالها ملامح متميزة لأنفسنا ولعلاقتنا مع العالم من حولنا" (أنطوني غدنز، 2005، ص 91)، وفي هذا الصدد يرى دوركهايم أن المجتمعات الحديثة نشأت عن جملة من الوظائف الخاصة والمختلفة عن تفاعل مجتمع أكبر من المجتمعات التقليدية فتكون فيه العلاقات أكثر تعقيدا وتظهر التعددية الثقافية ويتميز الأفراد عن بعضهم مما يسمح ب بروز الفردية فيكون الفرد مستقل عن الجماعة ويسود القانون والتعاون العضوي بين أفراد المجتمع، وهذا ما يرى فيه أنتوني غدنز تحرر الفرد من العوامل الموروثة المثقلة بالانتماء للجماعة والطبقة والجنوسة والتقاليد الموروثة وتمتعه بفرص غير مسبوقة لتشكيل هوية متميزة (أنطوني غدنز، 2005، ص 92).

رغم إقرار دوركهايم بتحرر الفرد نسبياً في المجتمعات الحديثة وقدرته على تشكيل هوية فردية إلا أنه ينتصر دائماً للجماعة على حساب الفرد ففي الشكل الأول من المجتمعات تفرض الجماعة سلطتها عن طريق الوعي الجمعي أما في الشكل الثاني فعن طريق القانون الذي يحفظ الحقوق والواجبات ويترك هامش محفوظ من الحرية للفرد لبروز هويته الفردية.

2. الهوية في أعمال نوربيرت إلياس:

يعتبر نوربيرت إلياس (1897-1990م) الهوية وديناميتها والعلاقات بين الفرد والمجتمع كأساس لعلم الاجتماع (نوربيرت إلياس، 2014، ص 09) فدراسة كل من الفرد والمجتمع معا دون فصل بينهما هي الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع، مع العمل عبر أطروحاته إلى تجاوز التقابل المتعارض بين الفرد والمجتمع، فسيروية الحضارة كما يرى قائمة على عدم فصل الفردانية عن التاريخ الاجتماعي للبشرية، أي الربط بين مفهومي النحن والأنا مع أسبقية هوية الأنا على هوية النحن (كلود دوبار، 2000، ص42) عكس ما ذهب إليه دوركهايم.

يرى نوربيرت إلياس أن الواقع الاجتماعي كاللعبة تتشكل من اجتماع اللاعبين أي الأفراد واستخدامهم لخبرات سابقة يتم تناقلها عبر الأجيال من المجتمع عن طريق الهابيتوس Habitus المصطلح الذي أسهب بيار بورديو في شرحه واستعماله.

تبرز إذا كل من الهوية الفردية والهوية الجماعية حسب هذا الطرح من خلال التفاعل بين الوضعية الاجتماعية للفرد داخل الجماعة التي تحدد دوره وفق مقتضيات الجماعة من جهة ووفق خبراته من جهة أخرى، وهذا ما تدرسه السوسيولوجيا دون إهمال لعنصري التواصل والعلاقات كمكونين ضروريين لبناء علاقة بين الفرد والمجتمع وهو ما يعرف بالتفاعلية.

من جهة أخرى أقر نوربيرت إلياس بأهمية الهوية الفردية هوية الأنا مقابل الهوية الجماعية هوية النحن وسيادتها أي الانتقال من الأشكال الجماعية إلى أشكال الفردانية من خلال بناء الوعي الذاتي كمحصلة لتفاعل الفرد مع معايير الجامعة وفق التنشئة الاجتماعية.

3. الهوية في أعمال ماكس فيبر:

يذهب ماكس فيبر (1864-1920م) في طرحه السوسيولوجي إلى التفريق بين نمطين مؤسسين للعلاقات الاجتماعية، نمط مبني على الشعور الذاتي وهو النمط الجماعاتي، ونمط مبني على العقلنة وتنسيق المصالح وهو التطويبي الذي يعتبره أشمل من الأول (عماد، عبد الغني، 2017، ص48)، ووفقاً لهذين النمطين من العلاقات تتشكل الهوية.

1.3. الهوية في النمط الجماعاتي:

يرى ماكس فيبر أن نمط العلاقات الجماعاتي يسود المجتمعات القديمة التي تكون صغيرة نسبياً تسودها علاقة الدم ونظامها عشائري أين تتدخل العشيرة في تحديد مكانة الفرد مسبقاً وتفرض عليه مجموعة من القواعد تجعل ذاته تتماثل مع المجموعة أو الزمرة التي ينتمي إليها ويستلهم أفعاله منها فتكون هويته منسجمة مع قيم الجماعة.

2.3. الهوية في النمط التطويحي:

يقع النمط التطويحي مقابلاً للنمط الجماعاتي حيث يسود المجتمعات الأكثر حداثة أين يكون الانتماء لهيئات ومؤسسات متعددة من أجل انجاز مهام معينة محددة باطار زمني معين، لا يكون هذا الانتماء محدد مسبقاً بموجب العرق أو الانتماء العائلي بل على أساس الكفاءة والقدرة على القيام بالمهام المطلوبة وهو ما يجعل من الفرصة قائمة أمام جميع أفراد المجتمع للقيام بمختلف الأدوار وشغل مختلف المراكز، وهو ما يجعل من ثقل الانتماء للجماعة أقل أهمية لتغييرها وعدم تدخلها في تحديد مكانة الفرد، في المقابل تبرز أهمية الفرد مما يجعل من فكرة الهوية الشخصية المتميزة عن الجماعة فكرة مهمة في اتجاه ماكس فيبر.

انطلاقاً من قراءته لأشكال العلاقات الاجتماعية لماكس فيبر يستخلص كلود دوبار بعدين: علائقي وسيري، في تضافهما خلال مسيرة الحياة تنتج أشكال الهوية التي تعتبر محاولة لمحاكاة الأفراد مع الآخرين وعبرهم، أي أنها عملية بناء مستمرة لأجل الانسجام مع الجماعة وبالوسائل التي تمنحها لتتنصر في الشكل الجماعاتي في إعادة إنتاج نفسها على حساب الفرد بينما ينتصر الفرد على حساب الجماعة في الشكل التطويحي (كلود دوبار، 2009، ص 40، 44). وبهذا يكون ماكس فيبر قد اتفق مع إيميل دوركهايم في هذا التقسيم الذي يقودنا إلى فكرة بروز هوية جماعية وأخرى فردية مع مخالفته في منح الأولوية المطلقة للجماعة.

ثالثاً: خلاصة الأفكار السوسيولوجية حول موضوع الهوية:

يعتبر إذا موضوع الهوية موضوعاً أساسياً في السوسيولوجيا رغم تسجيل غياب المصطلح في أعمال الرواد المؤسسين للعلم، فالأفكار حول المسألة كانت دائمة الحضور في تصوراتهم وهو ما يمكن من الارتكاز عليها لبناء نظرية سوسيولوجية حول موضوع الهوية، فمن خلال مناقشة المسألة عند إيميل دوركهايم، ماكس فيبر ونوربيرت إلياس نجد أن الأفكار المستوحاة حول موضوع الهوية تنطلق في بدايتها حول المقابلة بين الفرد والمجتمع أو الجماعة، وهو الطرح الذي يعتبر اتجاهها كلاسيكياً في السوسيولوجيا التي تجاوزت اليوم هذا الجدال الذي لم يعد يثير الكثير من الاهتمام، ففهم العلاقة بين الفرد والجماعة لم تعد تستدعي بالضرورة إلغاء أحدهما لفهم الآخر نتيجة للإقرار بالترايط الوثيق بينهما (أنتوني غدنز، 2005، ص 90)، وهو ما يجعل من البحث في الهوية من المنظور الاجتماعي بحث فيما يجعل أفراد المجتمع متشابهين من جهة ومتميزين عن

أفراد المجتمعات الأخرى من جهة أخرى مع مراعاة الوعي بهذا التشابه والاختلاف والقدرة على الصمود والاستمرار الزماني.

وفي هذا السياق يقول محمد سبيلا في الموسوعة العربية: " الهوية في العلوم الاجتماعية هي حفاظ جماعة بشرية ما على نفس قوامها وكيانها عبر قرون " (محمد سبيلا، 2010، ص 838)، بينما يرى أنتوني غدنز أن الهوية الاجتماعية هي الدليل على تشابه أفراد المجتمع الواحد (أنتوني غدنز، 2005، ص 91).

رابعاً: الهوية؛ من التحليل النفسي إلى الأنثروبولوجيا:

يعتبر إريك إريكسون Eric Erikson (1902- 1994م) المؤسس لمفهوم الهوية ضمن مدرستي التحليل النفسي في أوروبا والثقافة والشخصية في الولايات الأمريكية المتحدة، حيث عمل ضمن وضعه للنماذج الشاملة لمراحل حياة الفرد على التمييز بين هوية فردية وهوية اجتماعية نفسية تضم كل عناصر انتماء الفرد للجماعة، كما عمل على رسم حدود التشابك بين الهويتين الفردية والجماعية مبينا عمق العلاقة بين الفرد والمجتمع وميل كل منهما إلى التنظيم المتبادل (بيتر كونسن، 2010، ص 11) مانحا للتفاعلات الاجتماعية الأهمية البالغة في تكوين الهوية الشخصية عكس ما ذهب إليه سيغموند فرويد ومدرسة التحليل النفسي التي اعتبرت العوامل الاجتماعية عوامل تكبح تطور الأنا ونموه (كاترين ألبيرن، 2010، ص 19).

يمزج إريكسون إذا بين ما هو نفسي وما هو اجتماعي من خلال الهوية الاجتماعية النفسية التي تجمع في طياتها عمليات نفسية اجتماعية شديدة التعقيد لا يمكن الفصل بينهما بحجة أن كل من الفرد والجماعة قد تطورا معا وكل منهما يمرر وجود واستمرار الآخر، وفي هذا يقول: " لتحقق الهوية يجب أن يتحقق حوار مستمر بين الفرد والجماعة " (بيتر كونسن، 2010، ص 94)، فالهوية الفردية حسب رأيه تتشكل في الثقافة والتاريخ وبالتفاعل الدائم والمستمر مع الفرد والجماعة التي ينتمي إليها.

وفي هذا السياق تطرح العديد من المقاربات الأنثروبولوجية مفهوم الهوية وتربطه بشكل وثيق بمفهوم الثقافة التي توصف بأنها أسلوب حياة الأفراد في جماعة معينة تطبع هويتهم وفق ما يميزها عن غيرها من الجماعات (طوني بينيت، مرجع سابق، ص 233). ويعتبر مفهوم الثقافة مفهوما محوريا في الدراسات الأنثروبولوجية بوصفه الحقل الذي تتشكل فيه الهوية ضمن تيار الثقافة والشخصية، هذا التيار الذي تأثر كثيرا بعلم النفس والتحليل النفسي تحديدا، وهنا تبرز العديد من الأسماء التي تتفق حول فكرة الشخصية الأساسية مثل؛ روث بنديكت، مارغريت ميد، رالف لينتون، كلايد كلوكهون وأبرام كاردنر وغيرهم ممن أسسوا لمفهوم الشخصية الأساسية.

ويعني هذا المفهوم مجموع العناصر التي يسعى كل مجتمع أو جماعة إلى طبع أفرادها بها وجعلها أساسية في شخصيتهم، ويأتي هذا التيار كنتيجة لنقد التيار التاريخي الذي تزعمه فرانز بواس (1855- 1942م) الذي رفض إمكانية تطور الثقافة بشكل مستقل كما يرى التيار التطوري، بل هي في رأيه حصيلة للنمو التاريخي والاتصال الثقافي بين المناطق الثقافية ومنه فالثقافة كيانات مستقلة وهو ما يفسر التعدد والتنوع الثقافي (عماد، عبد الغني، 2017، ص 65). إلا أن الجيل الذي جاء بعد فرانس بواس والذي يتشكل أساسا من تلامذته لم يكتفوا بالتفسير التاريخي للثقافة، ونتيجة لدراسات ميدانية مطعمة بأفكار التيارات النفسية

على رأسها التحليل النفسي لسيفغمونند فرويد طرحوا مسألة التجربة السيكلوجية إضافة إلى السمات الثقافية في بناء الشخصية الأساسية التي تشكل محوري الهوية.

ويعتبر الموضوع الأساسي لهذا التيار هو دراسة الأفكار المشتركة بين معظم أفراد مجتمع معين وما ينتج عنها من تصرفات شعورية وغير شعورية (غامدي، محمد حسن، 1989، ص 26)، أي أنه يدرس الشخصية من حيث هي تفاعل الفرد مع مجتمعه وفق الثقافة التي تسود هذا المجتمع وتطبع أفرادها بطابعها الخاص. ما يلاحظ بشكل فارق في هذا الطرح الأنثروبولوجي هو الهدوء النسبي للجدل بين الهوية من حيث هي مطلباً فردياً أو جماعياً وكونها للثقافة التي يبنمها الإنسان من حيث هو عضو في جماعة معينة يتألف مع معطياتها، وإن كان هذا الهدوء لم يدم طويلاً لبروزه مجدداً مع الأنثروبولوجيا المعاصرة وبروز جدل الهويات المتصارعة.

خاتمة:

من خلال تتبعنا لمفهوم الهوية عبر مختلف الحقب الزمنية وفي ميادين معرفية متعددة الاتجاهات؛ من الفلسفية إلى الاجتماعية فالسلوكية وأخيراً الأنثروبولوجية والدراسات الثقافية تبين أن الموضوع موضوعاً جدلياً، لا ينفك الجدل حوله ينتهي من زاوية نظر حتى ينطلق مجدداً من زاوية أخرى، والمنتظر أن يستمر هذا الجدل تماشياً مع زوايا معالجة الظواهر الإنسانية، ومحدداتها السلوكية ودواعي وجودها الاجتماعي وضوابط ذلك الوجود والنظريات المفسرة له لا سيم في إطار التقدم التكنولوجي الهائل الذي تعرفه البشرية والموسوم بالرقمة والذي من شأنه أن يغير ملامح الوجود البشري الأمر الذي يتطلب الانطلاق من جديد لبحث موضوع الهوية في ظل العوالم الافتراضية.

قائمة المراجع

- ألبرت، ك (وآخرون). ترجمة إياس حسن. *الهوية والهويات - الفرد - الزمرة - المجتمع*. (دمشق، سوريا: الهيئة العامة السورية للكتاب 2010).
- إلباس، ن. ترجمة هاني صالح. *مجتمع الأفراد*. (الطبعة الرابعة. سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع. 2014).
- بينيت، ط (وآخرون) ترجمة سعيد الغانمي. *مفاتيح إصطلاحية - معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع* (الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة. 2010).
- جدنز، أ. ترجمة أديب يوسف شيش. *الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة؛ تحليل كتابات ماركس وبركهايم وماكس فيبر*. (الطبعة الأولى.. دمشق، سوريا: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر د س).
- حسنين، ح. ح. *الهوية*. (الطبعة الأولى. القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة، 2012).
- دوركهايم، إ. ترجمة حافظ الجمالي. *في تقسيم العمل الاجتماعي*. (بيروت، لبنان: المكتبة الشرقية 1982).
- سالم، ف ز. *نحو هوية ثقافية عربية إسلامية* (القاهرة، مصر: دار العالم العربي 2008).
- صليبا، ج. *المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية*. الجزء الثاني (بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني. 1982).
- عماد، ع غ. *سوسيولوجيا الهوية: جدلية الوعي والتفكك وإعادة البناء* (الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية 2017).
- غامري، م ح. *المدخل الثقافي في دراسة الشخصية* (الإسكندرية، مصر: المكتب الجامعي الحديث 1989).
- غدنز، أ. *علم الاجتماع* ترجمة فايز الصباغ. (الطبعة الأولى، بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية 2005).
- كلود، د. ترجمة ر. بعث. *أزمة الهويات - تفسير تحول* (الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المكتبة الشرقية. 2000).
- كلود، د. *مجلة إضافات أزمة الهويات*. العدد 7. 2009.
- كونس، ب. ترجمة سامي جميل رضوان. *البحث عن الهوية وتشتتها في حياة إيريك إركسون وأعماله* (الطبعة الأولى. العين، الإمارات العربية المتحدة: دار الكتاب الجامعي 2010).
- المسكيني، ف. *الهوية والزمان - تأويلات فينومينولوجية لمسألة "نحن"* (الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر. 2001).
- المليح، و ج. *مفهوم الهوية مساراته النظرية والتاريخية في الفلسفة، في الأنثروبولوجيا وفي علم الاجتماع* (منوبة، تونس: مركز النشر الجامعي. 2010).

- وهوليورن، هـ. ترجمة حاتم حميد محسن. *سوشيولوجيا الثقافة والهوية*. (الطبعة الأولى. دمشق، سورية: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع 2010).
- Brubaker, R. Frédéric, J.. *Au – delà de L'identité*. Actes de la recherche en sciences sociales. L'exception americane2 Vol. 139. (2001)